العنوان:	نابلس في العصر المملوكي 648 - 923هـ (1250 - 1517م)
المؤلف الرئيسي:	العزة، رئيسة عبدالفتاح طلب
مؤلفين آخرين:	خرابشة، سليمان عبد(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1995
موقع:	اربد
الصفحات:	1 - 193
رقم MD:	729884
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة اليرموك
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	نابلس، التاريخ الاسلامي، عصر المماليك
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/729884

الفصل الثالث

المجتمع النابلسي في عصر الدولة المملوكية

أولاً: فئات السكان العرقية:

تضم البنية البشرية في ولاية نابلس خليطاً متعدد الأعراق، بحيث تتكون هذه البنية من أخلاطٍ من العرب والعجم والسامرة(١) وتعود أصول العرب في نابلس الى القبائل العربية التي هاجرت من جنوب الجزيرة الى شمالها، عبر فترات مختلفة من التاريخ قبل الاسلام، واثناء حركة الفتح الاسلامي وما بعدها. ومن بين القبائل العربية التي هاجرت الى نابلس في بداية حركة الفتح الاسلامي: بنو غانم وهم من العشائر الخزرجية التي استقرت في فلسطين، وترجع في نسبها الى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الخزرجي (ت١٤هـ/٦٣٥م) وقد اقام هؤلاء في قرية بورين من قرى نابلس(٢) كما هاجر الى نابلس واقام فيها الكثير من قحطان، وطائفة من مضر بن نزار(٣) اما القبائل اللخمية فقد نزلت فيما حول الرملة الى نابلس ثم البحيرة الميتة والجولان وما يليها من ارض حوران، وكان يخالطهم قبائل جهينة وذبيان والقين(٤) وهاجر قسم من قضاعة إلى نابلس واليهم انتسب بنو قدامه الذين سكنوا جماعيل وجوارها من قرى نابلس، وهاجر قسم منهم الى دمشق في فترة الحروب مع الفرنجة(٥) وقد استقرت هذه القبائل في منطقة نابلس، وتحضرت بمرور الوقت الى الدرجة التي نسيت فيها هذه القبائل ممارساتها البدوية من ترحال وتنقل واتجهت الى حياة الاستقرار والزراعة مما حدا بهيتروث الى القول: بأننا لا نجد ذكراً لأسماء

---

(١) ابن رستة، ابي علي احمد بن عمر: الاعلاق النفيسة، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩١م ص٣٢٩ وسيشار اليه فيما بعد ابن رسته: الاعلاق النفيسة.

(٢) كامل العسلي: بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، د.ن، عمان ١٩٩٢ ص١١٥.

(٣) العمري: مسالك الابصار، ص١٥٤: القلقشندي: صبح الاعشى،ج١،ص٣٣٩.

(٤) احمد رمضان: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، طبعة ١٩٧٧،ص١٨١. وسيشار اليه فيما بعد، رمضان: المجتمع الإسلامي.

(٥) ابن طولون، محمد، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية. تحقيق أحمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ن، ق١؛ ص ٦٨-٦٩ وسيشار اليه فيما بعد. ابن طولون، القلائد الجوهرية؛ مصطفى الدباغ: القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،ط١، ١٩٧٩،ص٤٣. وسيشار اليه فيما بعد، الدباغ: القبائل العربية.

قبائل بدوية في منطقة نابلس في سجلات القرن السادس عشر[1] وقد سجل لنا الرحالة الاوروبيون جانباً من انطباعاتهم عن هذا العنصر، فهم مضيافون جداً وكرماء ولطفاء ممتازون[2]. اما من الناحية السياسية فهم غير مخلصين دائماً في ولائهم للسلطان[3] وخلال فترة الصراع الاسلامي الفرنجي استقر في نابلس وجوارها جماعات من الفرنجة، قدروا بنحو خمسمائة فرد[4] وقد قدم هؤلاء الى فلسطين بصفة عامة منذ نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وكان معظمهم من فرنسا وايطاليا واسبانيا، وننقل اشارة دونها فوشية الشارتري عن استقرار الاوروبين في الاراضي المقدسة قال فيها "نحن الذين كنا غربيين اصبحنا الان شرقيين فالذي كان رومانيا او فرنسيا اصبح الان جليلياً او فلسطينياً.... ونسينا الان اماكن ولادتنا"[5] وتدلل هذه الاشارة على استحسان هؤلاء الاوروبيون للاقامة والاستقرار في فلسطين وإلا لما نسوا اماكن ولادتهم.

وقد تحدثت مصادرنا الاسلامية ايضاً عن وجود الفرنجة في نابلس فأبو شامة يذكر بأن معظم سكان نابلس وضياعها مسلمون، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمون[6] ولما حرر المسلمون مدينة نابلس (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) على يد حسام الدين لاجين ابن اخت السلطان صلاح الدين عامل الفرنج المقيمين في نابلس معاملةً حسنة وامنهم على انفسهم واموالهم وممتلكاتهم، وسمح لهم بمغادرة المنطقة الى اية جهة يختارونها[7] فغادر منهم من غادر وبقي من بقي، فتعرب هؤلاء مع مرور الزمن وذابوا في المجتمع العربي النابلسي. اما الاكراد فيعود تاريخ

---

(١) هيتروث: التقلبات في كثافة الاستيطان وحدوده في فلسطين وشرقي الاردن منذ القرن السادس عشر ضمن كتاب (دراسات جغرافية المانية حول الشرق الاوسط) تح ابوجين فرت، ت فؤاد ابراهيم المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.م، د.ت ص١٣٨. وسيشار اليه فيما بعد هيتروث: التقلبات في كثافة الاستيطان.

(٢) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧٢.

(٣) برتراندون: رحلة برتراندون، ص٣٠٧-٣٢٤.

(٤) Benvenisti, M: .,The Crusaders in the Holy land, Jerusalem, 1976 P.409.

(٥) الشارتري: تاريخ الحملة الى القدس، ص٢١٨.

(٦) ابو شامة: الروضتين، ص٨٨.

(٧) نفس المصدر والجزء ، ص٨٩.

وجودهم في بلاد الشام الى بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ اذ اسكنهم شبل الدولة نصر بن مرداس في حصن الاكراد عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) واستمروا فيه حتى مجيء الاحتلال الفرنجي للشام واحتلالهم للحصن سنة ٥٠٣(هـ/ ١١٠٩م)[١] وقد بلغ الاكراد شأناً عظيماً، خاصة حينما تمكن صلاح الدين الايوبي من اقامة الدولة الايوبية، وتبعاً لذلك اصبح الاكراد طبقة عسكرية واقطاعية متميزة ومسيطرة في مصر وبلاد الشام؛ لكونهم اصبحوا حكّام البلاد وقد نهضوا بدور كبير في محاربة الفرنج وتواجدت اعداد كبيرة منهم في نابلس بعد معركة حطين، حيث منحها السلطان صلاح الدين لابن اخته حسام الدين بعد ان فتحها واخرج الفرنج منها لتكون اقطاعاً له، بما في ذلك اعمالها وضياعها ومعاقلها، فارسل حسام الدين فرقة من فرسانه لاقرار الاوضاع في نابلس، فاستوعبوا ثمارها وغلالها ورتبوا امر الدفاع عنها[٢] وبعد وفاته انتقلت الى الامراء الاكراد امثال سيف الدين علي بن احمد الهكاري من الاكراد الهكارية[٣] ولما كان الامير الاقطاعي في نابلس يطلب منه تجهيز ما يقارب من سبعمائة فارس لقتال الفرنج[٤] وبما ان امير نابلس في الغالب من الامراء الاكراد فأن نسبة لا بأس بها من هذه الحامية التي يجهزها الامير ستكون من الاكراد؛ لكونهم العنصر البارز في الدولة الايوبية ناهيك عن كبار الموظفين الذين يتولون شؤون الادارة في المدينة وغالبيتهم من الاكراد، وحتى بعد انتهاء الدولة الايوبية وقيام الدولة المملوكية استمر تواجد الاكراد في المنطقة، وخدم عدد كبير منهم في الجيش المملوكي، ولا بد ان وجودهم استمر في نابلس وسط الخليط السكاني الذي حوته نابلس بين جنباتها.

---

(١) مجهول: اعمال الفرنجة،ص١٠٩.

(٢) ابو شامة: الروضتين،ج٢، ص٤٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص١٨٠-١٨١.

(٤) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٣٧.

أما الأتراك والجركس فقد وجد هذان العنصران في كافة ارجاء السلطنة المملوكية كفئة مسيطرة تولت مهام الحكم والادارة، وشكل هذان العنصران طبقة اقطاعية عسكرية، حظيت بامتيازات هائلة جعلتهم يتميزون عن باقي العناصر السكانية في الولاية، بما حازوه من املاك واقطاعات درت عليهم عوائد مرتفعة جداً فقد منحوا اقطاعات كثيرة وواسعة، كتلك التي منحهم اياها السلطان الظاهر بيبرس عقب معركة ارسوف(٦٦٣هـ/١٢٦٥م) وجعلها اقطاعات تمليك تبقى للولد منهم وولد الولد ما يدوم الى اخر الدهر، وفي هذا الاطار وزعت عليهم اراض كبيرة من اراضي ولاية نابلس(١) وكان سلاطين المماليك يغدقون هذه المنح والاقطاعات على اتباعهم ومماليكهم كلما اتسعت اراضي الدولة عن طريق الفتح واستعادة البلاد من الغزاة الفرنج وهذا عائد على اعتبار ان الدولة المملوكية قامت على اساس نظام الاقطاع العسكري أو الحربي وقد أخذ هذا النظام عن الأيوبيين الذين اخذوه بدورهم عن االسلاجقة.

وقد عاش في نابلس اعداد كبيرة من هذين العنصرين، فمنهم تكونت الحامية العسكرية التي تدافع عن الولاية ورغم عدم اشارة المصادر التي اطلعت عليها الباحثة الى حجم هذه الحامية، ناهيك عن كبار الموظفين الذين تولوا ادارة الولاية وغيرهم، ممن كان يفضل الاقامة في الولاية ولا يزال الى يومنا هذا بقايا سكان في نابلس يعودون في اصولهم الى الاتراك(٢).

واضافة الى ما سبق ذكره من عناصر فقد عاش في نابلس أقليات عرقية اخرى لعل من اهمها السريان الذين عاشوا باعداد كبيرة في فلسطين، وعمل معظمهم كخدم في بيوت المسلمين وتشابه السريان مع المسلمين في زيهم ولكنهم امتازوا بوضع الحزام على أوساطهم(٣) وكانت أحزمة المسيحين أداه هامة لتمييزهم من بين السكان.

---

(١) الدواداري: زبدة الفكرة، ج١٠، مخطوط لوحة رقم ١٠٣، مفضل بن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك ص١٣٩-١٤٠.

(٢) صبحي طوقان: نابلس صفحات مجيدة من الثقافة والحضارة والكفاح، د.م، د.ن، ١٩٦٩،ص٣٤. وسيشار اليه فيما بعد، طوقان: نابلس صفحات مجيدة.

(٣) بورشارد: وصف الارض المقدسة،ص١٧٣.

ثانياً: فئات السكان الدينية

كان معظم سكان نابلس وقراها مسلمين(١) بالاضافة الى وجود طوائف دينية اخرى كالنصارى والسامريين وقد وصف المسلمون من قبل الرحالة الاجانب بأنهم يبشرون بمحمد ويحفظون دساتيره وقوانينه وشرائعه، ويبيح لهم الدين الاسلامي تعدد الزوجات ولديهم ايفيبابه ephebiae. (مركز تدريب عسكري للشباب في كل مدينة) وهم مضيافون جداً وكرماء ولطفاء ممتازون(٢) وقد اعتنق بعض السكان المسلمين في نابلس المذهب الشيعي وتزايد اتباع هذا المذهب اثناء الحكم الفاطمي.

وقد اخذ المذهب الشيعي في الانحسار مع انتهاء الدولة الفاطمية حتى بلغ مداه في العصرين الايوبي والمملوكي حيث عملت الدولة الايوبية ومن بعدها الدولة المملوكية في هذا الاتجاه ضمن سياسية بناء المدارس والزوايا والربط وغيرها من المؤسسات الدينية والاجتماعية في المدن الاسلامية الشامية والمصرية بهدف تدعيم المذهب السني ونشره والقضاء على المذهب الشيعي واتباعه في المنطقة(٣) وبين اتباع المذهب السني ظهرت اتجاهات فكرية متعددة مثل المعتزلة وقد عاش هؤلاء في نابلس خفية(٤) اما التصوف فقد انتشر في نابلس بشكل كبير وخاصة

---

(١) ابو شامة: الروضتين، ج٢،ص٨٨. وقد أورد لويس أنه ومن خلال السجل رقم ١٠٣٨ لسنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨-١٥٣٩م استطاع التعرف الى حوالي ٦٣٨ اسرة مسلمة في مدينة نابلس فاذا اعتبرنا ان متوسط الاسرة خمسة افراد فهذا يعني ان عدد السكان المسلمين في المدينة لوحدها ٣١٩٠ نسمة ناهيك عن السكان المسلمين المقيمين في الريف

Cohen-Lewis, Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton 1968,P. 149.

وسيشار اليه فيما بعد Cohen-Lewis, Population and Revenue.

اما هيتروث فيقدر عدد العائلات المسلمة ب٧٩٦ اي ما يساوي ٣٩٨٠ نسمة Hutteroth, Historical Geography P.53.

(٢) بورشارد: وصف الارض المقدسة،ص١٧٢-١٧٣ هذه الاشارة التي يوردها بورشارد عن تمسك المسلمين بالشريعة الاسلامية تجعلنا نستخلص من خلالها مدى حرص المسلمين في العصر المملوكي على تطبيق حدود الشريعة فاذا اضفنا اليها اوصافة للمسلمين بانهم يسمون المسيح اعظم الانبياء وانه نفخة من عند الله وولد من مريم العذراء ولا يعتقدون بعذابه بل برفعه الى الله ان مثل هذه الاشارات تعطينا تصوراً عن مدى التحول الذي حصل في فهم الفرنج للديانة الاسلامية في القرن الثالث عشر بشكل افضل مقارنة مع فهمهم لها في بداية حضورهم الى فلسطين.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٨٤،٣٩٣-٣٩٤،٤١١-٤١٤. المقريزي: السلوك ج١١ ق٢،تح، ص٦٠٨.

(٤) المقدسي: احسن التقاسيم،ص١٧٩.

في عصر المماليك، وأحسب أن المماليك قد دعموا هذا التوجه في المجتمع بغرض صرف الناس عن مساوئ النظام ومنعهم من الالتفات الى الطبقة الحاكمة ومساوئها. وقد نتج عن هذا الدعم والتشجيع قيام نوع من التحالف بين الصوفية والنظام المملوكي يضمن كل طرف من خلاله بقاءه، وما يتمتع به من امتيازات. خاصة في ظل المعارضة التي ابداها الفقهاء والعلماء للسياسة المملوكية في شتى الميادين الدينية والاجتماعية والاقتصادية(١).

أما النصارى فقد عاشوا في نابلس الى جانب المسلمين والسامريين واشار بورشارد من القرن الثالث عشر الى وجودهم حيث ذكر بأنه يقيم في الارض المقدسة رجال من جميع الامم وكل واحد منهم يتبع مذهباً خاصاً ومن بينهم المسيحيون اليونان (الارثوذكس)(٢) ولما حررت مدينة نابلس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م كان بها خلق كثير فسألو السلطان الاقامة في مملكته فأقرهم على املاكهم واماكنهم(٣) وقد عاش هؤلاء في السلطنة عيشة كريمة وتمتعوا بتسامح كبير، ولم يمنع هذا من خضوعهم بين فترة واخرى لسلسله من الاجراءات التي اتخذها السلاطين المماليك بحق اهل الذمة خاصة في مصر وبلاد الشام؛ وذلك للحد من تزايد نفوذهم في السلطنة وتشبههم بالمسلمين، ومن امثلة تلك الاجراءات اقدام الناصر محمد بن قلاوون على اصدار مرسوم سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) يتضمن الزام النصارى بلبس العمائم الزرقاء وشد الزنانير على اوساطهم ومنعهم من العمل في دواوين الدولة ومنعهم من ان يعلو بنيانهم بنيان المسلمين وان يركبوا الحمير(٤) ويرجع السبب في ذلك الى تذمر وزير ملك المغرب الذي قدم مصر يريد الحج فرأى مما عليه حال اهل الذمة من تزايد ترفهم وتعاليهم على المسلمين فشق عليه الامر واجتمع بالاميرين

(١) علي حيدر: سلاطين العصر المملوكي الأول، واجبهم الاجتماعي والديني ورأي الفقهاء والمؤرخين فيهم، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، م٤،ع١ ١٩٩٢،ص٧٠-٧٩. وسيشار اليه فيما بعد علي حيدر: سلاطين العصر المملوكي.

(٢) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧٣.

(٣) ابن ايبك:كنز الدرر، ج٧، ١٩٧٢ ص٩٥، وسيشار اليه فيما بعد الدواداري: كنز الدرر. اشار السجل رقم ١٠٣٨ لسنة ٩٤٥هـ العثماني الى وجود ٢٤ اسرة مسيحية في نابلس بمعدل ١٢٠ فرد Cohen- Lewis: Population and Revenue, p.149 اما هيتروث فقد قدرهم استناداً الى الدفاتر التي عاد اليها عن اعدادهم في نابلس الى انهم ١٨ اسرة بمعدل ٩٠ فرد. Huttroth, Historical Geography, p53.

(٤) النويري: نهاية الارب، ج٣١، ص٤١٨، القلقشندي: صبح الاعشى ج١٢،ص٣٧٨، المقريزي: السلوك،ج٢ق٣،ص٩٢٢-٩٢٤، ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٨.

بيبرس وسلار وحدثهما بما رآه وانكر ذلك وبكا بكاءاً كثيراً وشنع في امر النصارى وقال: كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيض وتذل المسلمين وتمشيهم في خدمتهم فأثر كلامه في نفوس الامراء وعقد مجلس بحضوز الحكام واستدعيت القضاه والفقهاء وبرز مرسوم السلطان بحمل اهل الذمة على ما يقتضيه الشرع المحمدي[1] وقد طبقت على النساء المسيحيات واليهوديات والسامريات نظم مماثلة اذ كان لزاماً عليهن ان يرتدين اثناء وجودهن في الشوارع اقمشة زرقاء او صفراء على رؤوسهن او فوق صدورهن حتى يمكن ان يميزن بها عن النساء المسلمات وكان من الضروري ان يرتدين الزنار على الرداء الفوقاني (الازار) كما يجب عليهن ان يرتدين علامة مميزة اثناء وجودهن في الحمامات العامة ولا بد ان يكون الحزام من الوان متنوعة كعمامة الرجال ووفق اللون المخصص للطائفة فاللون الاصفر لليهوديات والازرق للمسيحيات والأحمر للسامريات[2] كما استخرجت منهم ضريبة الجوالى[3] وهي ما يؤخذ ةعلى اهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة[4] وقد مرت اوقات على أهل الذمة استخرجت فيه هذه الضرائب باستخدام القوه والعنف[5] ولكن مثل هذه الممارسات كانت ممارسات فردية، ولم تكن اتجاهاً عاماً تنهجه الدولة في جمع مثل هذه الضرائب منهم، ومثل هذه التجاوزات تحدث في اي منطقة في العالم، وينبغي ان نقدر ونحن نتحدث عنها روح العصر الذي حدثت فيه وهو عصر الحروب مع الفرنجة وطبيعة المماليك انفسهم وحداثة عهدهم بالاسلام وعدم تشربهم لروحه بالقدر الكافي كذلك يجب علينا ان

(١) المقريزي: السلوك، ج١ ق٣ ،ص٩٠٩-٩١٠.

(٢) ك . أ. ماير: الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٢٠، وسيشار اليه فيما بعد. ماير: الملابس المملوكية.

(٣) الجوالي: جمع جالية وتطلق على اهل الذمة وقد قيل لهم ذلك لان عمر بن الخطاب اجلاهم عن جزيرة العرب ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من اهل الذمة وان لم يجلوا من اوطانهم، ويشير المقريزي الى تناقص الجوالى في عصره لكثرة اظهار النصارى للاسلام من الحوادث التي مرت بهم: محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣ ص ٩٤ وسيشار اليه فيما بعد محمد قنديل : التعريف.

(٤) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣،ص٥٣: الاسعد بن مماتي: قوانين الدواوين، تح عزيز عطية، مكتبة مدبولي القاهرة، ط١، ١٩٩١،ص٣١٧-٣١٩.

(٥) ابن لقلق: تاريخ بطاركة مجلد ٤، ج٢، ص١٢٠.

نلاحظ ان جزءاً من ممارسات الدولة المملوكية ضد اهل الذمة قد جاءت كرد فعل لتصرفات اهل الذمة التي تسيء للدولة.

أما السامريون فهم طائفة دينية عاشت وما زالت حتى الان في نابلس وبلغوا حداً من الشهرة بحيث نسبت المدينة اليهم، فيقال لنابلس مدينة السامرة نسبة اليهم(١) وقد اختلفت الاراء حول السمرة واصولهم ومعتقداتهم فالبعض يرى انهم من اليهود بل هم اليهود الاصليون وينتسبون في أصل أرومتهم الى يوسف الصديق الا كاهنهم فانه ينتسب الى لاوي ويرى اصحاب هذا الرأي ان اليهود قد انشقوا عنهم وخالطوا الأمم الأخرى، ويعزون هذا الانشقاق الى خلاف ديني نشأ بينهم وبين اليهود(٢) فيما يرى الفريق الاخر ان السامريين ليسوا من اليهود ولامن اصل يهودي(٣) وانهم سموا بهذا الاسم نسبة الى ارض السامرة في فلسطين وتفسير ذلك انه حدث اثناء حصار شلمنصر الخامس الاشوري للسامرة ذلك الحصار الذي دام ثلاث سنوات تبدل خلالها الملك الاشوري حيث اخذ الملك سنة ٧٢٢ ق.م مغتصب اطلق على نفسه اسم سرجون الثاني وقد سقطت السامرة بيده وحمل الكثير من الاسرى الذين اسكنهم في مناطق شتى من الامبراطوية الاشورية وحمل اناساً اسكهنم بدلهم في المواقع الفلسطينية اتى بهم من بابل وكوثا وحما وسفارئيم (ابوحبة حالياً جنوب بغداد في العراق) واسكنهم السامرة وصار القادمون الجدد يمتزجون بحرية مع العبريين المحتلين في المنطقة وتأثروا بالعبادات العبرية تم انفصلوا عنهم نهائياً سنة ٤٣٢ ق.م واطلق عليهم منذ الانفصال الاخير اسم السامريين نسبة الى السامرة(٣) يويد ذلك ما جاء في سفر الملوك الثاني(٤).

---

(١) البغدادي: مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٣٤٧ وقد ذكر عن نابلس انها مدينة السمرة التي لا يسكنون غيرها الا الحاجة من عمل وغيره، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥،ص٢٤٨، الحنبلي: الانس الجليل،ج٢ ص٧٥.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤،ص٢٥٩. البغدادي: مراصد الاطلاع، ج٣،ص١٣٤١.

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣،ص٢٧١. الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٧٥. النابلسي: الحضرة الانسية، ص٧٤ المقدسي، ابو محمود احمد بن هلال: مثير الغرام بفضائل القدس والشام، مكتبة الطاهر اخوان، يافا د.ت،ص٦٥.

(٤) سامي سعيد الاحمد: تاريخ فلسطين القديم، مركز الدراسات الفسطينية، جامعة بغداد ١٩٧٩،ص٢٢٤ وسيشار اليه فيما بعد سامي الاحمد: تاريخ فلسطين القديم. جورجي زيدان: فلسطين تاريخها واثارها. مجلة الهلال، السنة ٢٢، ج٤، اكتوبر ١٩١٣-١٩١٤ ص٣٤٩. وسيشار اليه فيما بعد جورجي زيدان: فلسطين تاريخها.

وتاريخ هذه الطائفة تابع لتاريخ البلاد التي استقروا فيها ويستفاد من رحلة بنيامين التطيلي في القرن الثاني عشر الميلادي ان عدد السامريين في فلسطين كان نحو الف شخص[١].

وما زالوا يتناقصون الى الان[٢] ولم يبق منهم الا المقيمون في نابلس عند سفح جبل جرزيم، وهم طائفة شديدة التمسك بمعتقداتهم ولا يتنازلون عن حرف منها[٣] وقد اقتبس هؤلاء من المسلمين في نابلس الكثير من العادات واللهجات ودخل عدد منهم في الاسلام، امثال وزير الصالح اسماعيل امين الدولة السامري وكان غالباً على الصالح بحيث لا يخرج عن رأيه[٤] ولهذه الطائفة رئيس يقيم في مدينة نابلس وله نائب يقيم في مدينة دمشق[٥]. وقد طبقت عليهم الاجراءات التي اتخذها سلاطين المماليك في مصر والشام بحق اهل الذمة فالزموا بارتداء العمائم الحمراء ودفع ضريبة الجوالي[٦].

وقد سادت اللغة العربية بين سكان الولاية وغيرها من المدن الفلسطينية فتكلم المسلمون والنصارى والسمرة اللغة العربية باللهجة المحلية– اللهجة النابلسية– واعتبرت هذه اللغة هي اللغة الرسمية للولاية علماً انه قد استخدم الى جانبها لغات اخرى فالسامرة يستخدمون لغتهم العبرية

---

(١) سفر الملوك الثاني: ١٧:٢٤ "واتى ملك اشور بقوم من بابل وكوث وعوا وحما وسفارئيم واسكنهم في مدن السامرة عوضاً عن بني اسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها.

(٢) بنيامين : رحلة بنيامين،ص٩٦. .

(٣) قدّر هيتروث عددهم في القرن السادس عشر ب٢٠ اسرة بمعدل ١٠٠ شخص Hutteroth:Historical Geography p.53 اما كوهن ولويس فقدرا عددهم ب٣٦ اسرة بمعدل ١٨٠ شخص
Cohen- Lewis, Population and revenue p.149; Enlart , C, les Monument des Croises P. 283.

(٤) لمزيد من المعلومات عن معتقدات الطائفة السامرية انظر: التطيلي: رحلة بنيامين ص٩٦ فما بعدها. القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣،ص٢٧٠-٢٧٣.

(٥) ابو الفدا: المختصر ، ج٣، ص١٧٤.

(٦) القلقشندي: صبح الاعشى،ج٤،ص٢٠١.

(٧) المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٧٨، النويري: نهاية الارب، ج٣١،ص٤١٨.

القديمة فيما بينهم ويؤدون بها طقوسهم الدينية(١) كما وجدت اللغة السريانية التي تحدث بها السريان وهم المسيحيون الذين اشار الى وجودهم بورشارد(٢) وأدُّوا بها طقوسهم الدينية اما اللغة التركية التي استخدمها المماليك فيما بينهم وكانت تميزهم عن سائر ابناء البلاد الاصليين فلم تكن باللغة المعروفة للسكان رغم طول الفترة التي قضوها في مصر والشام حكاماً لها. ويعود ذلك الى ان تعلم المواطنين اللغة التركية كان محظوراً من الحكام(٣).

ثالثاً: اقسام السكان من حيث نمط المعيشة

تبعاً لنمط المعيشة ينقسم السكان في ولاية نابلس الى قسمين: الحضر وهم سكان المجتمعات المستقرة من مدن وقرى وهؤلاء يمتازون بالاستقرار والارتباط بالارض ارتباطاً وثيقاً، ونحن نستدل على وجود هذا النمط من السكان من خلال ما زخر به المجتمع النابلسي من مؤسسات اجتماعية وثقافية واقتصادية كالمدارس والمستشفيات والحمامات والاسواق والمساجد وما الى ذلك وهذه المؤسسات لا يمكنها ان تقدم خدماتها الا في ظل مجتمع مستقر.

وتتباين حياة السكان في النمط الحضري ففي حين نجد العلماء والتجار والاشراف وكبار الموظفين والاقطاعيين من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة نجد في المقابل ارباب الحرف والصناعات البسيطة كالخياطين والحدادين والجزارين... داخل المجتمع النابلسي.

ونستدل على طبيعة الحياة التي عاشها سكان الحضر في نابلس وتفاوتها من خلال ما حفلت به المصادر الاسلامية من اوصاف للمدينة، حيث البيوت الفارهة والفخمة المكونة من طبقات عدة والمغطاه بالرخام والتي تحوي في داخلها غرفاً كثيرة وقاعات وحدائق غناء ومن

---

(١) عبد الله عارف: مدينة نابلس، ص١٠٥ واللغة السامرية هي اللغة العبرية نفسها وتكتب باحرف خاصة هي الاحرف السامرية المتفرعة من القلم الفنيقي. جورجي زيدان: فلسطين تاريخها، ص٣٥٠. ولهم كتابة خاصة ينقصها ثلاثة احرف هي الحاء والهاء والعين ويعوضون عنها بحرف الالف: التطليلي: رحلة بنيامين ص٩٧.

(٢) بورشارد: وصف الارض المقدسة،ص١٧٣.

(٣) بولياك: الاقطاعية، ص١٥.

ذلك ما نصه:-" فدخلنا الى جنينة في ذلك المنزل رحيبة الأكناف لطيفة الجوانب والأطراف، فيها حوض ماء تجري بالعذب الزلال، وايوان عالٍ جديد البنيان وريف الظلال(١) وايضاً "وذهبنا الى روض اريض يصعد اليه بدرج طويل غير عريض وهو من العجايب التي عن الغرايب مفصحة ان يكون بستان ذو اشجار ومياه جارية وثمار يانعة وازهار فائحة واطيار صادحة، وذلك كله فوق الأسطحة وهو من خصوصيات البلاد النابلسية(٢) نتبين من خلال هذا النص الذي اورده النابلسي عن الكيفية التي تعامل بها الانسان في نابلس مع المساحة الارضية المتاحة وطريقة استغلالها استغلالاً ممتازاً ذلك ان المدينة واقعة بين جبلين وهي ذات شكل مستطيل لا عرض لها مما يعني ان المساحات السهلية والمنبسطة التي يمكن ان يتوسع فيها الانسان في مدن اخرى قليلة هنا وكتعويض عن هذا النقص في المساحات لجأ الانسان الى التوسع في استخدام الارض توسعاً رأسياً او عمودياً مستفيداً من كل مساحة ممكنة مهما كانت هذه المساحة ضيقة فاستغل اسطح المنازل في عمل الحدائق الغناء التي تجلب له الراحة والسعادة بدلاً من اللجوء الى التوسع الافقي الذي يحتاج لمساحات اكبر وهو ما نفتقده هنا.

علاوة على ذلك تعكس لنا هذه الاوصاف المستوى الرفيع الذي عاشته فئة قليلة من سكان الحضر في ولاية نابلس كما تعطينا مؤشراً يعكس مدى الثراء الذي نعم به السكان في الولاية هذا عدا عما امتازت به المدينة من عمران رائق بديع فهي مؤلفة من ثمانية عشر حياً، ذات سوق متسع يسمى سوق السلطان ويتألف من عدد كبير من الدكاكين ويمكن الحصول على كل شيء فيه لانه مملوء بالسلع(٣).

أما النمط المعيشي الثاني فهم البدو وهؤلاء انتقلوا الى نابلس مع بداية الفتح الإسلامي، وامتازت حياتهم بالترحال والتنقل سعياً وراء العيش وهم كما يقول جوانفيل: لا يعيشون في

---

(١) النابلسي: الحضرة الانسية، ص٧٨.

(٢) النابلسي: الحضرة الانسية، ص٨٥.

(٣) Evliya Tshelbis: Travels in Palestine, No1, P 139.

المدن أو القرى أو القصور بل يسكنون العراء على الدوام، ويحافظون على أهل بيتهم ونسائهم وأطفالهم في الليل، ويرتدي البدو جلاليب طويلة تغطي جميع اجسامهم وارجلهم واقدامهم، فاذا امطرت السماء تدثروا بعباءاتهم واخرجوا اللجم من افواه جيادهم وتركوها على مقربة منهم فاذا اقبل الصباح نشروا عباءاتهم للشمس وفركوها ورتبوها فتبدو كأنها لم تبل، وهم يؤمنون ان ليس من احد يموت الا في اليوم المقدر له، ولذلك لا يحملون السلاح واذا ارادوا شتم ابنائهم صاحوا بهم " لتكن ملعونا كالافرنجي الذي يتدرع حذر الموت" اما في القتال فلا يحملون من السلاح سوى السيف والرمح(١) كذلك نجد وصفاً آخر للبدو: بانهم خصصوا انفسهم للعناية بالماشية والجمال واطعامها فحسب، وهم يمتلكون اعداداً كبيرة جداً منها ولا يوجد لهؤلاء مساكن معينة، وهم ينصبون خيامهم حيث توجد المراعي وهو مولعون جداً بالحرب- وهنا نلحظ الدقة في وصفهم بحب الحرب وهو ما لم يلاحظه جوانفيل الذي نفى هذه الصفة عنهم- ومع ذلك فهم يستخدمون السيوف والرماح فقط في المعركة، ولا يستخدمون السهام مدعين انها رديئة الى حد كبير في ازهاق حياة رجل بسهم وهم شجعان في الحرب ويرتدون قميصاً احمر فقط وفوقه عباءة واسعة جداً ويغطون رؤوسهم بقطعة قماش وجميع سوريا مليئة بهم ولكن جزءاً كبيراً منهم يقيم حول نهر الاردن(٢).

وليست لدينا احصاءات دقيقة عن اعدادهم في ولاية نابلس في العصر المملوكي ولكن استناداً الى الدراسات الحديثة التي اعتمدت على السجلات العثمانية نستتج ان اعدادهم كانت ضئيلة جداً. وقد تواجدوا في نابلس او بالقرب منها(٣) وقد اصابت حياتهم تغيرات ملحوظة في القرن الثالث عشر الميلادي؛ اذ قدم هؤلاء البدو للحجاج المسيحين في هذه الفترة والذين يزورون فلسطين خدمات مختلفة كالحماية والارشاد والمساعدات المختلفة نظير مبالغ نقدية يدفعها هؤلاء الحجاج والرحالة للبدو(٤) كذلك من المؤكد ان كثيراً من القبائل العربية المقيمة في

---

(١) جوانفيل: مذكرات جوانفيل، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) بورشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧٤.

(٣) Hutteroth, Historical Geography P.27.

(٤) برتراندون: رحلة برتراندون، ص٣٠٧.

منطقة نابلس قد اخذت في التحول التدريجي الى النمط الحضري حيث الاستقرار والزراعة وقد ذكر هيتروث بأنه لم يجد اي ذكر للقبائل البدوية في نابلس في السجلات العثمانية العائدة للقرن السادس عشر(١)

رابعاً: فئات المجتمع النابلسي

ويأتي في طليعة السلم للمجتمع النابلسي فئة الامراء المماليك وكبار الموظفين من رجال الدولة وارباب البيوتات ويليها طبقة الاعيان وهي الفئة الواقعة بين فئة الخاصة وفئة العامة، وهي تشمل الزعماء الاكثر بروزاً واجلالاً من الذين يتزعمون جماعات وفئات من الشعب وطبقة الخاصة وهم اصحاب المناصب العليا في الادارة، وهؤلاء عكست منزلتهم في المجتمع قوة وثروة الدولة نفسها(٢).

ويأتي في المرتبة الثانية فئة الاشراف وهم السادة المنتسبون الى نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسل الحسين بن علي رضى الله عنه، وقد جمعت هؤلاء السادة نقابة عرفت بإسم نقابة الاشراف يتولاها احد شيوخ هذه الطائفة ويكون جليل القدر وله النظر في امورهم، ومنع من يدخل فيهم من الادعياء واذا شك في احد منهم طلب منه شجرة نسبة، وعليه ان يعود مرضاهم ويمشي في جنائزهم ويسعى في حوائجهم ويأخذ على يد المعتدي منهم ويمنعه من الاعتداء، ولا يقطع امراً من الامور المتعلقة بهم الا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك(٣) وكانت لهم زاوية يقميون بها ويزورهم الناس للتبرك بهم واشار النابلسي الى وجود نقيب الاشراف ودوار النقيب في نابلس(٤) وبقي هؤلاء الاشراف لا يميزون عن غيرهم وخاصة في الملبس حتى عهد السلطان الاشرف شعبان بن حسين بن قلاوون الذي اصدر في سنة (٧٨٣هـ/١٣٧١م)

---

(١) هيتروث: التقلبات في كثافة الاستيطان، ص١٣٨.

(٢) لابيدوس: مدن الشام في العصر المملوكي، ص١٣٥.

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج١١، ص١٦١، ابن الفرات:: تاريخ ابن الفرات، م٤، ج١، ص١٤٦.

(٤) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣٠٧-٣٠٩.

مرسوماً يقول فيه: ان الاشراف في الديار المصرية والشامية يسمون عمائمهم بعلامة خضراء بارزة للخاصة والعامة اجلالاً لحقهم وتعظيماً لقدرهم؛ ليقابلوا بالقبول والاقبال ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين. فوقع ذلك ولبس الاشراف العلائم الخضر التي هي الان مستمرة على رؤوسهم[1] و لم يكن ذلك معمولاً به من قبل بدليل قول ابي المحاسن "ولقد احدث شيئاً كان الدهر محتاجاً اليه، ولا الهم ا لله تعالى الملوك ذلك من قبل[2] وقد تمتع هؤلاء بمكانه مرموقة في المجتمع الاسلامي ومن ضمنه المجتمع النابلسي. وكانوا مقصداً يقصدهم الناس للزيارة وتقربت الدولة المملوكية منهم واغدقت عليهم الوظائف والالقاب لتنال رضاهم.

ويأتي بعد الاشراف في المرتبة فئة العلماء، وكان هؤلاء مثل المماليك وجهاء قياديين في المجتمع ولكنهم لم يشكلوا فئة منفصلة، بل هم مجموعة من الناس تنتمي لجميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية[3] وقد اشار الحنبلي الى اهمية هذه الفئة وكثرة منتسبيها[4] وقد اولى المماليك هذه الفئة من الناس اهمية خاصة وتعاونوا معهم؛ ولعل السبب في ذلك يعود الى حساسية موقف المماليك بسبب اصلهم حيث مسهم الرق الى جانب نظرة المعاصرين لهم حيث استأثروا بالحكم دون سادتهم الايوبيين[5] وقد لعب العلماء دوراً بارزاً في توجيه المجتمع توجيهاً جهادياً، نرى ذلك عندما قام هؤلاء بتحريض المسلمين على مهاجمة الفرنج وترك العمل في الاراضي الزراعية الخاضعة لسلطانهم يوم كانت نابلس تحت الاحتلال الفرنجي وقد استخدموا منابر رسول ا لله عليه السلام في الجمع والاعياد لتشجيع السكان على العصيان ضد الفرنجة ولقي ذلك استجابة من الفلاحين الذين طالما عانوا من الظلم والقهر الفرنجي[6] و لم يقف الامر

(١) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١١،ص٥٦.

(٢) المصدر نفسه والجزء، ص٥٧.

(٣) لابيدوس: مدن الشام، ص٢٠٥.

(٤) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٧٥.

(٥) علي السيد: القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٢١ وسيشار اليه فيما بعد: علي السيد: القدس.

(٦) ابن طولون، شمس الدين محمد: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ت،ج٦، ص٢٧ وسيشار اليه فيما بعد: ابن طولون: القلائد الجوهرية.

بالعلماء عند حد تحريض الفلاحين على العصيان بل كانوا اكثر ايجابية حين ساهموا مساهمة فعالة في جهاد الفرنج فقد حدث في عام (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) وبعد بضعة اسابيع من رحيل الامبراطور فردريك عن بيت المقدس ان دبر ائمة المسلمين والزهاد في نابلس والخليل شن غارة على بيت المقدس فهرب المسيحيون على اختلاف نحلهم الى برج داود للاحتماء به بينما ارسل رينالد سيد حيفا الى عكا يلتمس النجدة ولم يجبر المغيرين على الارتداد سوى قدوم نائبي الامبراطور باليان سيد صيدا وجارنية على رأس جيش وانكر الامراء المسلمون ان لهم صلة بهذه الغارة(١).

ولدينا من نابلس نماذج ايجابية عن علماء وقفوا ضد الدولة المملوكية وسياستها وكان جزاؤهم القتل مثل محمد بن ابراهيم بن ابي بكر محمد بن ابي الكرم النابلسي الاصل ثم الدمشقي الذي قتل ظلماً في شعبان سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وذلك انه لما خرج منطاش ويلبغا الناصري وملكا الامر، ونفي برقوق الى الكرك ثم خلص وحاصر دمشق قام ابن الشهيد وجمع لمحاربته فلما ال الامر الى برقوق حقد عليه فأمر بالقبض عليه فحمل الى القاهرة مقيداً فاودع السجن مع اهل الجرائم ثم امر به فأخرج الى ظاهر القاهرة فضربت عنقه بالقرب من القلعة، وذلك قبل رمضان بيوم وكان بينه وبين بيدمر شركبير فاذا ولي بيدمر النيابة سعى في اذاه بكل طريق صودرت أمواله غير مره واختفى وعزل مراراً، ثم يعود وكان اعظم ذنوبه عند الظاهر ان منطاش لما سجن الشهاب القرشي اعطاه الخطابة فكان يحرض في خطبته على الظاهر(٢).

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٤٠-٣٤١.

(٢) العسقلاني: شهاب الدين ابي الفضل أحمد بن علي: أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، طبع بإعانة وزارة المعارف العالية الهندية تحت مراقبة د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت ط٢ ١٩٨٦، ج٣، ص ٩٣-٩٤.

كذلك وقف العلماء ضد سياسة الدولة المملوكية، فلم يقتنعوا بسياستهم نحو الخلافة التي افرغوها من محتواها واستنكروا تعديل النظام القضائي الذي اوجد قاضياً لكل مذهب[١] ورغم هذه المعارضة الا ان الدولة المملوكية استمرت في استرضائهم بغية الاستفادة من وضعهم في المجتمع لصالحها فاستمروا يتمتعون باحترام كبير في الدولة[٢] ومع تراجع الدولة المملوكية وتزايد مساوئ نظام الحكم وانتشار الامراض الاجتماعية في الدولة من مفاسد ورشاوى وبراطيل انتقلت هذه الامراض الى اوساط ادعياء العلم الذين وصل بهم الامر الى الحد الذي اشتروا فيه الوظائف الدينية والعلمية "بالبذل والبرطلة"؛ امثال ابن النحاس الذي تولى قضاء نابلس ببذل بذلة على يد ابراهيم النابلسي حتى ولية في صفر سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م[٣] وفي هذا دليل على مدى تراجع الحياة الاجتماعية في ظل المماليك.

اما وجهاء التجار فقد مثلوا طبقة غنية وقوية وذات مكانة اجتماعية متميزة، وكان التجار من بين اغنى رجال زمانهم، ووقفوا على قدم المساواة مع الامراء المماليك ان لم يتفوقوا عليهم في بعض الاحيان، وقد سبق ان اشرنا في معرض الحديث عن النمط الحضري الى مستوى معيشي عالٍ لطبقة من اهل نابلس[٤] ولا شك ان التجار كانوا في طليعتها خاصة وقد اشتهرت مدينة نابلس بانها ذات مكانة تجارية مرموقة واسواق مزدهرة، وحركة تجارية نشطة[٥] ولكن فترة الرخاء والاستقرار تراجعت بعد استيلاء المماليك الجراكسة على السلطة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) وهم جماعة مغامرة زجت الدولة في حروب اهلية متصلة لربع قرن، وادى ضعف النظام السياسي في الدولة الى قيام البدو والتركمان بالثورات المستمرة فعاثوا في المناطق الزراعية في بلاد الشام ومصر اضافة الى الاخطار الخارجية المتمثلة بغزو تيمورلنك (٨٠٤-

---

(١) علي حيدر: سلاطين العصر المملوكي، ص ٧٣.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١،ص٧٢.

(٣) السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن:الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، لبنان، د.ت، ج٩، ص ٤٥، وسيشار اليه فيما بعد، السخاوي: الضوء اللامع.

(٤) النابلسي: الحضرة الانسية، ص٧٨-٨٥.

(٥) لمزيد من المعلومات عن نابلس واسواقها وتجارتها انظر Evliya Tshelebis: Travels in Palestin P.P 139-140.

٨٠٥هـ/١٤٠٠-١٤٠١م) وما احدثه من خراب، وقد تسببت هـذه الاحـداث بـاضرار كبـيرة للاقتصاد العام ورافق ذلك انهيار النظام النقدي وتكرر الغلاء والمجاعات(١).

اما فئة العامة والفلاحين فقد عاش هـؤلاء وسـط مجتمـع طبقـي مغلـق جـامد وينظـر الى حقوق الفرد فيه من خلال انتمائه الطبقي، لذلك عانى هؤلاء اشد المعاناه(٢) وخاصـة مـن جـراء النظام الاقطاعي حيث تعرض الفلاح لحياة جديدة لم يكن يستطيع معها تغيير وضعـه او ظروفـه وقـد اشـار بعـض المؤرخين المعـاصرين الى حالـة الفـلاح في هــذا العصـر فالسُّـبكي (٧٢٧-٧٧١هـ/١٣٢٦-١٣٦٩م) يقول "ومن قبائح ديـوان الجيش إلزامهـم الفلاحـين في الاقطاعـات بالفلاحة، والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو أمير نفسه، وقد جرت عادة الشام بـأن مـن نـزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة. والحال في غـير الشـام اشـد منه فيها. وكل ذلك لا يحل اعتماده، والبلاد تعمـر بـدون ذلـك. بـل انمـا تخـرب بذلـك لانهـم يضيقون على الناس فيضيق ! الله عليهم(٣) فاذا اضفنا الى ذلك ما كان يدفعه الفلاح مـن ضرائـب ورسوماً اضافية غير ثابتة مثل الهدايا وغيرهـا لادركنـا لمـاذا انتهـت حالـة الريـف في بلادنـا الى الخراب ولماذا هجر الناس قراهم تاركين العمل بالزراعة.

وما دمنا بصدد الحديث عن المجتمع النابلسي في العصر المملوكي فلنحاول ان نلقي نظرة على حجم الكثافة السـكانية في الولايـة خـلال هـذه الحقبـة وفي هـذا الصـدد تعتـبر الدراسـات الديموغرافية المتخصصة ان منطقة نابلس كـانت في طليعـة المنـاطق الفلسـطينية كثافـة بالسـكان؛ ويستدل على ذلك من خلال عدد قراها المرتفع ، ومن كـثرة مـا جنـد منهـا مـن تجـاريد لقتـال العثمانين وخاصة في اواخر العهد المملوكي، وقد اصيبت الكثافة السكانية في نـابلس بـالتخلخل

(١) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي: دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ط ٥، ١٩٨٧، ص ١٠٨، ١٠٩ وسيشار اليه فيما بعد، الدوري: مقدمة في التاريخ الإقتصادي.

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، مجلة العربي، ع ٣٧٩، الكويت، ١٩٩٠، ص٥٨.

(٣) السُّبكي، تاج الدين عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، تح محمد النجار وآخرون، دار الكتاب العربي القاهرة، ط١، ١٩٤٨ ص٣٤ وسيشار اليه فيما بعد: السبكي: معيد النعم.

في اكثر من فترة من فترات تاريخها فقد تخلخلت هذه الكثافة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حينما داهم الفرنج البلاد وغدت مسرحاً لعدوانهم وظلمهم، مما دفع بالكثير من السكان الى هجرة البلاد وخراب قراها، وقد اثر هذا في الكثافة السكانية لمنطقة نابلس.

وقد تحدثت المصادر الاسلامية عن اخبار هذه الهجرات ودوافعها: فقد هاجر مثلاً ال قدامه من نابلس الى دمشق بسبب العدوان الفرنجي وحاول اهالي قريتهم ثنيهم عن مقصدهم، فلم يفلحوا فاستعانوا بالفرنجة الذين قعدوا لهم على الشريعة لمنعهم ولكنهم تمكنوا من العبور[1] وقد يتساءل المرء عن الدافع وراء قيام الفرنج بمحاولة منع بني قدامه من الهجرة الى دمشق وترى الباحثة ان ذلك يأتي في اطار الاستراتجية الفرنجية التي كانت تقوم في بداية الاحتلال الفرنجي لفلسطين على قاعدة ارض بلا سكان لذلك ارتكب الفرنج المجازر البشعة ضد السكان في فلسطين لتفريغها من سكانها، ثم اخذت هذه الاستراتيجية في التبدل فيما بعد لكون المجتمع الفرنجي مجتمع عسكري يحيا وسط محيط من الاعداء ولا بد له من المحافظة على تفوقه العسكري فبحث عمن يقوم بخدمته في الاعمال المختلفة من زراعة وغيرها فلم يجدوا سوى سكان البلاد الأصليين للقيام بذلك في الوقت الذي يقون عناصرهم كقوى عسكرية جاهزة للدفاع عن نفسها في حالة تعرضها لاعتداءات خارجية او في حالة قيامها بمشاريع عدوانية ضد جيرانها المسلمين، ودليلنا على ذلك اقدام الملك بلدوين الاول ملك بيت المقدس الذي لاحظ بقلق كبير خلو عاصمته من السكان تقريباً بحيث لم يكن لديه العدد الكافي من الناس لمواصلة المشاريع اللازمة للمملكة ولا العدد الكافي من الناس لحماية المدينة والدفاع عن الاسوار والابراج.

---

(١) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ق١، ص٦٨-٦٩.

وبعد التشارو مع مستشاريه بخصوص الخطط اللازمة لاعمار المدينة المقدسة بالناس بعد ان قضي على السكان الاصليين حين تم احتلالها قرر الملك بلدوين الاول جلب اعداداً من المسيحين من قرى واقعة فيما وراء الاردن من (البلقاء وعمان) ومنحهم قطاعات المدينة التي كانت بحاجة ماسة لهذه المعونة وامتلأت المنازل بهم(١) لذلك من الطبيعي الا يسمح الفرنجة لمن بقي من السكان بمغادرة البلاد حتى يتمكنوا من الاستفادة منهم في مشاريع الاعمار المختلفة في المملكة ورغم محاولات الفرنج المتكررة لمنع الهجرة فقد توالى عبور المهاجرين الى دمشق من قرى نابلس المختلفة مثل جيت(٢) ومردا وجماعين(٣) ولعل من الدوافع وراء استمرار هذه التحركات سوء المعاملة التي لقيها المسلمون من الفرنج إذ اجبروهم على العمل في الارض وتعرضوا للاذى والحبس ودفعوا الكثير من الاموال على شكل ضرائب(٤) هذا عدا عن الوحشية التي تعرض لها سكان المناطق التي وقعت تحت الاحتلال الفرنجي. ان هذه الممارسات نتج عنها خراب الريف النابلسي بحيث تقلص عدد القرى في نابلس الى تسعين قرية في مساحة بلغت ١٥٠٠كم٢(٥) فلما حررت مدينة نابلس اثر معركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م) عادت الكثافة السكانية الى الارتفاع بشكل ملفت للنظر مما حدا بالبنداري الى القول :"فعادت نابلس بلدة محشوه بساكنيها كالرمان وبقيت الى اخر عهده- حسام الدين لاجين- وعمرت بعدله واحسانه ورفقه ورفده(٦) واستمرت هذه الكثافة على هذا النحو طيلة العصر الايوبي وازدهرت في العصر المملوكي، ولعل في اشارة ابن شاهين ما يدعم هذه الاستمرارية والازدهار اذ يقول بانها مدينة حسنة لها اقليم يشتمل على ثلاثمائة قرية(٧) مما يعني زيادة بمقدار الضعفين عما كانت عليه في عصر الاحتلال الفرنجي.

(١) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص٥٦٠-٥٦١.
(٢) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ق١، ص٧٤.
(٣) المصدر نفسه والجزء، ص٧٥-٧٦، النابلسي: الحضرة الانسية، ٩٠-٩٧.
(٤) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ق١، ص٧٤.
(٥) Benvenisti, the Crusaders in the Holy land, Jerusalem, 1976,P.214.
(٦) البنداري، الفتح بن علي: سنا البرق الشامي، ص٣٠٢.
(٧) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٤٦.

وقد تبدت قيمة الولاية من الناحية السكانية في العصر المملوكي وخاصة عهد دولة المماليك الجراكسة من خلال ما ساهمت به في تجهيز الحملات المتجهة لحرب ابن عثمان، وفي حجم الاموال التي جمعت من السكان لتجهيز تلك الحملات فقد جمع ماماي الغوري الخاصكي من اهالي جبل نابلس اكثر من مائة واربعة وعشرين الف دينار لتجهيز المشاه(١) وهو مبلغ ضخم قياساً لتلك الفترة التي نتحدث عنها ويجب ان لا يفهم من ذلك ان الكثافة السكانية استمرت عالية ومزدهرة، بل حدث تراجع مهم في حجم الكثافة في العالم باسره وخاصة منذ منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي حين ضرب العالم بأسره وباء الطاعون الذي افنى اعداد كبيرة من سكان بلاد الشام، ودمرت مدن باكملها مثل اللد والرملة وجنين(٢) وكاد النمو السكاني يقترب من الصفر وقد حفلت المصادر بأوصاف مطولة لهذا الوباء واثاره فيذكر ابن حبيب :"ان الفناء العظيم الذي جاب البلاد والامصار لم يسمع بمثله في سالف الاعصار.... اخلى الديار والبيوت واوقع الناس في علة السكوت، وصال وجال وايتم الاطفال(٣) يضاف الى هذا الوباء عوامل اخرى كالقحط والجفاف والفتن الداخلية والحروب الخارجية وتعديات البدو وهي بلا شك عوامل ساهمت في تدني الكثافة السكانية في منطقة نابلس وغيرها من البلاد الى الدرجة التي قدر فيها عدد سكان نابلس حين فتحها العثمانيون في القرن السادس عشر ما بين خمسة الى ستة الاف نسمة(٤) فيما قدرها هيتروث بخمسة الاف نسمة معتبراً انها احتلت المرتبة الرابعة في عدد سكان المدينة نفسها البالغين ٤,٣٠٠ فرد(٥) اما دراسة الدكتور خليل اوغلو عن السكان في نابلس في بداية القرن السادس عشر والتي استندت الى دفتر الطابور رقم١٠٠، انقرة لسنة ١٠٠٥ هـ ١٥٩٦م فقدرت سكان المدينة بانهم ٨٥٤ نفراً اي ما يساوي٤٢٧٠ نسمة

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٠٨ وسيشار اليه فيما بعد: ابن اياس: بدائع الزهور.

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٩٧.

(٣) ابن حبيب: درة الاسلاك في دولة الاتراك، ج٨، لوحة رقم ٢٢٧ مخطوط مصور على ميكروفلم عن الخزانة العامة بالرباط محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الاردنية شريط رقم ٥٣٩ وسيشار اليه فيما بعد ابن حبيب: درة الأسلاك.

(٤) Cohen-Lewis: Population and revenue P.P 12-19.

(٥) Hutteroth, Histoical Geography P.53.

ونسبتهم من سكان اللواء ١٠,٥٠٪ اما اللواء ككل فقدر بحوالي ٤٠ ألف نسمة(١) ويستفاد من الدارسة التي اجراها د. محمود زايد عن المدن الفلسطينية من خلال رحلة برتراندون ١٤٣٢م ان مدن نابلس والقدس والخليل وغزة كانت اعظم المدن الفلسطينية خلال القرن الخامس عشر(٢) مما يعني ان المدينة قد استعادت بعض عافيتها من الناحية الديمغرافية بعد الطاعون الجارف في القرن الرابع عشر، الا ان العوامل سالفة الذكر قد لعبت دورها في القرن السادس عشر وادت الى تراجع ملحوظ للمدينة عبرت عنه الاحصاءات التي اشرنا اليها.

خامساً: مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع النابلسي

أ- العادات والتقاليد

كباقي المجتمعات الاسلامية مارس السكان في نابلس الكثير من العادات والتقاليد التي توارثوها خلفاً عن سلف، ورغم كثرة تلك العادات وتنوعها الا اننا سنقتصر على ايراد بعضها خوفاً من الاطالة، وبما يعطي صورة كاملة عن ابناء المجتمع النابلسي وعاداتهم في ذلك العصر. فمن تلك العادات التي انتشرت بين مختلف الطوائف في المجتمع النابلسي الاعتقاد بالحسد وما يسببه من امراض واحزان وموت... وغير ذلك من العلل وللوقاية من الحسد استخدام الناس الخرزة الزرقاء والتعاويذ لفك وابطال مفعول الحسد. كذلك جرت العادة بأنه يقبل الانسان قريبة او صديقة الذي عاد بعد غياب طويل، كذلك عرف من العادات ان الشخص لا يقف اذا كان بامكانه ان يؤدي العمل وهو جالس لذلك نشاهد النساء في مجتمعنا يجلسن اثناء غسل

---

(١) خليل ساحلي اوغلو: نسبة عدد سكان المدن الى مجموع عدد السكان في بعض الولايات العربية في الحكم العثماني، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع١و ٢، يناير تونس ١٩٩٠، ص١٦٠ حيث يذكر الدكتور ساحلي استناداً الى دفتر الطابورر رقم ١٠٠ لسنة ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م انه كان يعيش في لواء نابلس ٧,٢٩٤ اسرة و٦٩٤ مجرداً من المسلمين و١٧٥ اسرة مجرد واحد من النصارى و١٥ اسرة يهودية يبلغ مجموعهم ٨,١٣٥ نفراً فاذا ضرب هذا المجموع بالعدد خمسة حجم الاسرة التقريبي فان الناتج هو ٤٠.٦٧ وكان تسكن نابلس ٧٩١ اسرة و١٠ مجرد بين مسلمين و١٦ اسرة و٢ مجرد نصارى و١٣٥ اسرة يهودية منهم ١٥ سامريين فيبلغ عددهم ٨٥٤ نفر اي ما يساوي ٤٢٧٠ نسمة.

(٢) محمود زايد: دراسة للتقسيمات الادارية في فلسطين. المدن الفلسطينية في القرن الخامس عشر من خلال رحلة براتراندون دي لابروكية، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام جغرافية فلسطين وحضارتها ط١، عمان، ١٩٨٣،ج٢، ص٥٩٠.

الصوف او خبز الخبز وما شابه ذلك(١) كذلك اعتاد الناس على ترك الاشجار تنمو بين القبور بحيث بلغت هذه الاشجار السمت في نموها ومنها الاشجار حول قبر يوسف الصديق في قرية بلاطّه قرب نابلس(٢) وقد تنبه ياقوت الى هذه الظاهرة الهامة وسجلها باعتبارها نوعاً من المعتقدات الاجتماعية التي سادت بين الناس حيث اعتاد الناس على التبرك بمثل هذه الاشجار لاعتقادهم بنفعها لكونها موجودة في هذه الاماكن المقدسة بالنسبة اليهم وهو نوع من المعتقدات الوثنية التي آمنت باهمية المظاهر الطبيعية والتي سادت بفعل تفشي الجهل بين الناس.

كذلك انتشرت بين الناس عادة الاعتقاد بصدق المنجمين ومفسري الاحلام رغم نهي الدين الاسلامي عن الاعتقاد بهذه الأشياء- ومع ذلك شاعت هذه المعتقدات وانتشرت ليس فقط في نابلس ولكن في مجتمعاتنا العربية والاسلامية عامة وقد تنبه مؤرخونا لهذه الظواهر والمعتقدات وسجلوها(٣) وقد ساعدت هذه البيئة على ظهور الادعياء والمشعوذين والذين وجدوا لهم مكاناً في المجتمع مكنهم من بث دعاويهم فوجدوا من يصدقهم ويتبعهم ولدينا اشارات عن نماذج من هؤلاء الادعياء والمشعوذين في المجتمع النابلسي منهم محمد بن احمد الغرياني والذي ادعى انه المهدي المنتظر فاحتوى على عقول الناس واستفز الكثير منهم، وافسد نابلس وكان صاحب حيل وخداع(٤) ومن العادات التي سادت لدى أهل نابلس صناعة الحلويات وتقديمها، وقد تحدث ابن بطوطة عن حلواء الخروب التي تشتهر بها نابلس واوضح كيفية صنعها وذلك بان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب(٥) كما صنع النابلسيون

---

(١) علي السيد: القدس، ص ٢٦٢.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٤٧٨. وقد أجرى أحد علماء الآثار ويدعى ارنست سيربن تنقيباته في المنطقة سنة ١٩٠٤ ولم يجد أثر قبر ورفات سيدنا يوسف.

(٣) الكتبي: فوات الوفيات ج١، ص٨٦، صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات، تح احسان عباس، فرانز شتاينر فيسباذن، ط٢ ١٩٦٢ ج٧، ص٤٨-٤٩ وسيشار اليه فيما بعد الصفدي: الوافي بالوفيات.

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٤٦: السخاوي، الحافظ محمد بن عبد الرحمن بن محمد: التبر المسبوك في ذيل الملوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ص١٠٢.

(٥) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص٥٦.

الكنافة(١) وذاعت شهرتها حتى غدت عنواناً لأهل نابلس والى يومنا هذا، كذلك انتشر في المجتمع النابلسي عادة الاستحمام في الحمامات العامة والتي قصدها الناس من مختلف الطبقات رجالاً ونساءاً، لكون الناس لم يألفوا عادة الاستحمام في المنازل كما هو شائع في ايامنا، وقد اشار المقدسي الى هذه الحمامات بقوله "ولهم دواميس عجيبة"(٢) وقد بالغ النابلسيون في العناية بحماماتهم على اكمل وجه بحيث غدت مشهورة بحسنها وجودتها، وقد وصفها الدمشقي بأنها حمامات طيبة(٣) وقد وجد في الحمام المزين والحلاق والمزين يقوم باعمال الجراحة الخفيفة من ثقب الاذنين لوضع الحلق كما كان يقوم بختان الاطفال، اما الحلاق فيقوم بقص الشعر وتهذيب الشوارب والذقون، وارتبط بالحمامات بعض الطقوس والتقاليد فقد كانت مراكز لتداول الاخبار في المدينة واعتبر دخول المريض للحمام ايذاناً بشفائه، ويتوجه العريس ليلة زفافه الى الحمام في حين تذهب العروس الى حمام النساء(٤).

أما فيما يتعلق بالألبسة التي ارتداها السكان في منطقة نابلس فأننا نذكر ان الناس قد تجملوا في ملابسهم ولبسوا الاردية الكثيرة علماء وجهالاً، ولم يكونوا يتخففون في الصيف ولا يقورون الطيالسه ولا يتدرع الا اهل القرى والكتبة(٥) ولقد كانت هنالك ملابس للرجال وملابس للنساء ويتألف لباس الرجل من الأزار والمئزر والجبة والجوخة، والعباءة، والفوطة، والقميص والفردة، والقباء، والكساء، والكبر، واللبد، والمنديل، والنعل والمشاية والزربون(٦).

---

(١) السيوطي: منهل اللطائف في أكل الكنافة والقطايف، مخطوط لوحة رقم ١ نسخة مصورة لدى الباحثة، وقد ذكر السيوطي بأن لفظ الكنافة لم ترد عند احد من أئمة اللغة ولا في الألفاظ اللغوية ما يصلح ان يكون مادة لها ويظهر انها لفظ اعجمي او يوناني.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٧٤، والديماس هو الحمام والنسبة اليه ديماسي وفي الحديث كأنما خرج من ديماس. يعني الحمام. والديماسي، الحمامي السمعاني، ابي سعيد عبد الكريم محمد بن منصور التميمي: الأنساب، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه عبد الرحمن اليماني، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط٢، ١٩٦٢، ج٥ ص٤٥٠ وسيشار اليه فيما بعد السمعاني، الأنساب.

(٣) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص٢٠٠.

(٤) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ص٦٢.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

(٦) محمد عيسى صالحية: من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكي، حولية كلية الاداب، كلية الاداب، جامعة الكويت، ١٩٨٥، ص٢٧، وسيشار اليه فيما بعد صالحية: من وثائق الحرم القدسي.

أما لباس النساء فانه يتكون من الإزار (وهو قماش غير مطرز تلفه المرأة حول جسدها ويعطي الرداف والعوره، والبشت (العباءة الواسعة) والقباء وهو نوع من الرداء المحكم يصل في طوله الى منتصف عضله الساق مشقوق في مقدمته ومغلق عند الصدر، ولبست النساء ايضاً القميص، والملوطة (تشبة العباءة) والمناديل، والجبة، والجوخة (وترتدي في الشتاء) والشملة والطيلسان وهو ضرب من الثياب يوضع فوق الكتف(١) أو الرأس ويتدلى على الجبين والعصابة، والشعرية، والقناع، والنقاب، والطواخي.

أما ملابسهم الداخلية فأهمها القمصان الطويلة والتبان وقد ذكر السمعاني بأن التبان اسم السراويل لاساق لها(٢) كما ارتدت الجلباب وهو ثوب تغطي به المرأة صدرها وظهرها وتلتحف به المرأة من الرأس الى القدمين حين تريد الخروج(٣) وقد اعجب ابن العربي بالنساء في نابلس فقال "ولقد دخلت نيفاً على الف قرية فما رأيت نساءً أصون عيالاً ولا اعف نساءً من نساء نابلس... فأني اقمت فيها اشهراً فما رأيت امرأة في طريق نهاراً الا يوم الجمعة فأنهن يخرجن حتى يمتلئ المسجد منهن فاذا قضيت الصلاة وانقلبن الى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهم الى الجمعة الاخرى، وسائر القرى ترى نساءها متبرجات بزينة وعطلة متفرقات من كل فتن وعضلة(٤) اما اللباس المشترك بين النساء والرجال فهو لبس المناطق وهو نوع من الاحزمة يوضع على وسط الانسان بالنسبة للمسلمين أما أهل الذمة فقد منعوا من لبس المناطق واستعيض عنها بلبس الزنانير(٥) على اوساطهم وذلك ليسهل التمييز بينهم وبين المسلمين، وغدا لبس الزنانير من ازياء اهل الذمة(٦) التي تابع المماليك فرضها عليهم كذلك كانوا ملزمين بلبس الوان

---

(١) صالحية: من وثائق الحرم المقدسي، ص٢٠-٢٥.

(٢) السمعاني: الانساب، ج٣، ص١٣.

(٣) احمد رمضان: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام ص٢١٥-٢١٦.

(٤) احسان عباس: رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها قانون التأويل، مجلة ابحاث الجامعة الامريكية ج٢،٣،٤، بيروت، ١٩٦٨، ص٦٦.

(٥) الطبري: تاريخ الامم والملوك، ج١١، ص٣٦.

(٦) النويري: نهاية الارب، ج٣١،ص٤١٨، القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣،ص٣٧٨. برترالدون رحلة براترالدون ص٣٢٣.

محددة لسهولة التفريق بينهم وبين المسلمين فالزم النصارى بلبس الالبسة باللون الازرق واليهود الاصفر والسامرة الاحمر(١).

أما البدو فارتدوا القمصان الطويلة ولبسوا فوق هذه القمصان العباءات الواسعة جداً وغطوا رؤوسهم بقطعة قماش(٢) وهي اشبة ما تكون بالعمائم، وقد اختلفت طبيعة الملابس وانواعها باختلاف الوضع الطبقي للناس: فكان لكل طبقة ملابس تميز وضعها، بحيث لم يكن من حق اي فرد من خارج الطبقة ان يتزيا بها، وقد امتازت ملابس الطبقة العليا بالزخارف وارتفاع اثمانها فيما خلت ملابس العامة من الزخارف وكانت رخيصة الاثمان(٣).

وسائل التسلية في المجتمع النابلسي

الغناء:– اعتاد القوم في الولاية على الاهتمام بالغناء والموسيقي، فكانوا يعقدون لذلك مجالس الانس والطرب في بيوت الاعيان وكبار الموظفين والمترفين من التجار وقد تحدث النابلسي اثناء زيارته لنابلس عن مجلس من مجالس الأنس التي حضرها واستقدم في هذا المجلس مغنٍ حسن الصوت وقدّم الأغاني للحاضرين(٤) وقد أشارت المصادر إلى وجود ما يعرف بالمغاني في ولاية نابلس(٥) إذ اعتاد الناس ان يستقدموا في حفلاتهم من زواج وختان المغنيات مقابل مبلغ من المال، وقد تطور الأمر في الدولة المملوكية إلى أن أصبح هناك ضريبة تُفرَض عليهم وتعرضوا إلى المصادرات من العساكر في بعض الأوقات(٦) وقد استمر العمل بهذه الضريبة

---

(١) ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص٣٨-٣٩.
(٢) بوشارد: وصف الارض المقدسة، ص١٧٤: جوانفيل: مذكرات، ص١٢٥.
(٣) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٦٠.
(٤) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص٣١١.
(٥) البنداري: سنا البرق الشامي، ٢٤١-٢٤٢.
(٦) نفس المرجع والصفحة.

الى ان أُلغيت من قبل الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧١٧هـ/١٣١٧م) لكونها أدت الى ارتكاب الفواحش(١).

كذلك عُرِف في المجتمع من بين وسائل التسلية الخروج لاصطياد الحيوانات البرية من غزلان وطيور وغيرها، وقد أولع العرب رياضة الصيد وعدّوها من تراثهم الأصيل الذي تمسكوا به؛ لكونهم يقضون فيه أوقات فراغهم بعد طول الإنهاك والعمل، كما وجدت المباريات الرياضية من سباق الخيل ولعبة الكرة (البولو) وخاصة من جانب أُمراء المماليك(٢). كما مارسو لعبة النرد، وقد وجدت ايضاً العاب للأطفال ومنها القرق، الأرجوحه، الرجّاحه، الزحلوقه، الضبطه والمشية، والأنبوثه، والأربعة عشر، وحبا جعل (القلب على الظهر).

الأعياد والإحتفالات في المجتمع النابلسي:

الأعياد الإسلامية: احتفل المسلمون في هذا المجتمع وهم الأغلبية بعيد الفطر وعيد الأضحى اللذان جاءت بهما الشريعة الإسلامية وذلك بدءاً من السنة الثانية للهجرة(٣) وقد ابتدعت فيما بعد اعياد ومواسم دينية كثيرة منها عيد رأس السنة الهجرية والمولد النبوي وعاشوراء العاشر من المحرم والإحتفالات بغرة رجب وشعبان ورمضان ومواسم مثل موسم النبي موسى وغير ذلك من المناسبات الدينية.

أما بالنسبة إلى النصارى فقد مارسوا شعائرهم الدينية وكان لهم أربعة عشر عيداً، كان منها: عيد البشارة والزيتون والفصح وخمسين الاربعين وعيد الميلاد عيد الغطاس(٤) اما طائفة

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣،ص٢٢-٣٤.

(٢) زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٤٦، ص١٤٩.

(٣) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٢،ص٤٤٤.

(٤) سعيد عاشور: المجتمع الاسلامي في عصر الحروب الصليبية، المؤتمر الدولي الاول لتاريخ بلاد الشام ١٩٧٤، عمان، ١٩٨٠، ص٢٠١-٢٠٥.

السامرة فيحتفلون باعيادهم الدينية في مدينة نابلس، ففي عيد الفصح يصعدون الى جبل جرزيم ويقيمون الشعائر الدينية الخاصة بالعيد على قمة الجبل، وينحرون الأضاحي في وقفة عيد الفصح على مذبح خاص بجرزيم[1].

أما الإحتفالات الرسمية فقد تمثل في المواكب الرسمية التي تقام بمناسبة زيارة أمير كبير، أو الإحتفال بتنصيب أمير او كاشف الولاية الجديد او تولى قاضي القضاة وغير ذلك من المناسبات الرسمية، حيث تخرج هذه المواكب بزينات كبيرة، ويخرج الناس للتمتع بمشاهدتها وما جرى في سائر ولايات الدولة المملوكية جرى في ولاية نابلس من مظاهر احتفالية بمثل هذه المناسبات.

أثر الكوارث الطبيعية والاحداث السياسية على سكان نابلس.

تعرضت ولاية نابلس كغيرها من مدن الشام للكثير من الكوارث الطبيعية والاحداث السياسية التي اثرت تأثيراً بالغاً على السكان، فقد شهدت مدينة نابلس وفي عام ٤٢٥هـ/١٠٣٣م زلزالاً مدمراً اسقط نصف بنيان نابلس وخسف قرية الباذان بأهلها وبقرها وغنمها، وساخت في الارض، وكذلك قرى كثيرة هنالك[2] وفي عام ٥٧٩هـ/١٠٨٣م زلزلت نابلس زلزلة عظيمة، واخربت محال كثيرة وهدمتها بحيث لم يبق فيها سوى حارة السامرة ومات بها وبقراها ثلاثون الفاً تحت الردم[3] وفي عام ٥٨٩هـ/١٠٩٣م وقع في نابلس برد زنة كل حبة منها مائة وخمسين درهم[4] وفي عام ٥٩٨هـ/١٢٠١م عادت زلزلة عظيمة وهدمت ما كان قد تبقى من نابلس[5] وفي عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م شهدت البلاد الشامية غلاء عظيماً في

---

(١) التطيلي: رحلة بنيامين، ص٩٦.

(٢) السيوطي، هلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر: كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تح عبد الرحمن القريواتي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ١٤٠٤هـ ص٨٧، وسيشار اليه فيما بعد السيوطي كشف الصلصلة.

(٣) ابن كثير: البداية، ج١٣، ص٣١، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٤ وابو شامة: تراجم رجال القرنين، ص٢٠، ابن ايبك: كنز الدرر ج٧ ص١٤٩-١٥٠.

(٤) المصدر نفسه ج٧، ص١٢٢.

(٥) المصدر نفسه ج٧، ص١٥٣، السيوطي: كشف الصلصلة، ص١١٤.

جميع الأشياء بحيث بلغ رطل الخبز درهمين[1] و لم تكن نابلس بمعزل عن هذا الغلاء اما في عام ٦٩٥هـ/١٢٩٥م فقد تأخر المطر عن دمشق وبلاد حوران ونابلس والقدس وغالب بلاد الشام، بحيث ان فصل الشتاء دخل في ليلة الخميس ١٦ صفر ٦٩٥هـ الموافقة ١٦ كانون اول ١٢٩٥م والناس في ضيق عظيم وألم كثير وتزايدت الأسعار الى الغاية، ولا سيما في حوران والقدس ونابلس وصار بتلك البلاد شدة عظيمة بسبب ذلك، وجف الماء ببلاد الشام[2] اما في عام ٧١٨هـ/١٣١٨م فقد اصيبت البلاد بقحط مفرط اكلت معه الميتة وبيعت الاولاد، ومات بعض الناس من الجوع وجرى ما لا يعبر عنه، وفي عام الطاعون ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ابتدء الوباء بمدينة حلب ثم امتد الى البلاد الشامية وافنى بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعربان البوادي[3] واستمر هذا الوباء الى عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م وهو ما عرف باسم الطاعون الذي اباد اهل الغور وعكا وصفد والقدس ونابلس[4]. وفي عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م وفي اعقاب غزو تيمورلنك وعودته الى بلاده وقع الغلاء في نابلس والشام وحلب والرملة والقدس وبيعت غرارة القمح بثلاثمائة درهم ونقل من مصر الى بلاد الشام قمح كثير[5] لمواجهة هذه الضائقة.

وفي عام ٨١٣هـ/١٤١٠م عاد الطاعون وانتشر بدمشق وكان في أول هذا العام وباء ببلاد فلسطين وحوران وعجلون ونابلس وطرابلس فمات خلق كثير جداً[6] وفي عام ٨١٩هـ/١٤١٦م اشتد الغلاء بنابلس[7] وفي عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م غلت الاسعار في بلاد غزة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٨، ص٦٥، ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك ص٧٢و ص٤١٤.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج٨ ص٢١١. الجزري: شمس الدين محمد بن ابراهيم: حوادث الزمان (حوادث الفترة ما بين سنتي (٦٩٤-٦٩٦ هـ)، تح نعمان جبران، فرايبورغ ١٩٨٧، ص ٢٩-٣٠، وسيشار اليه فيما بعد الجزري: حوادث الزمان.

(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٩٧.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢ ق٢ ص٧٧٤. ابن حبيب: درة الاسلاك ج٨ مخطوط لوحة رقم ٢٢٧.

(٥) ابن قاضي، شهبة تقي الدين ابي بكر بن احمد: تاريخ ابن قاضي شهبة، تح عدنان درويش دمشق ١٩٧٧ ج٣ ص٢٣٨ وسيشار اليه فيما بعد ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبه.

(٦) المقريزي: السلوك ج٤: ق٢ ص١٦٥.

(٧) نفس المصدر والجزء والقسم، ص٣٥٠.

والرملة والقدس ونابلس والساحل ودمشق وحوران وحماه حتى تجاوز سعر الاردب المصري عندهم الف درهم فلوساً(١).

نخلص من خلال الشواهد السابقة ان المنطقة قد اصيبت بسلسلة كبيرة وشبه متواصلة من الكوارث كالاوبئة والزلازل التي دمرتها تدميراً كاملاً، مما اثر تأثيراً بالغ السوء في النمو الديمغرافي للمنطقة ولا يقف الامر عند حد تدني الكثافة السكانية فقط بل يتعداه الى نتائج اخرى اكثر خطورة فقد تأثرت انظمة الملكية بفعل موت اصحاب الاقطاعات، وبالتالي تملكها من قبل فئات جديدة ربما لم يكن يسمح لها بالتملك لولا هذه الكوارث. كما عانى الريف من نقص خطير في اعداد الفلاحين، ولعل ذلك يفسر لنا وجود الاعداد الكبيرة من الخرائب في البلاد لدرجة منع معه الفلاحون من حرية التنقل الا بعد مرور ثلاث سنوات، وان ترك الفلاح ارضاً اعيد اليها بالقوة، كذلك تأثرت الثروة النباتية بحيث فقدت البساتين والكروم اصحابها، مما ادى الى جفافها كما اثرت تلك الكوارث على الحيوانات.

فاذا اضفنا الى ذلك اسراب الجراد التي كانت تهاجم المنطقة وبأعدادها الهائلة بين فترة واخرى ادركنا لماذا كان يقع الغلاء ويهجر الفلاحون قراهم مما يعني الاستمرار في خراب المنطقة وتراكم هذا الخراب(٢) هذا عدا عن سياسة المماليك التعسفية التي كانت تضاف الى تلك المآسي كل ذلك يجعلنا نشعر بمدى ثقل الحياة التي عاشها الناس في هذه الحقبة.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤ ق٢، ص٧١١.

(٢) يوسف غوانمة: الطاعون والجفاف واثرها على البيئة في بلاد الشام في العصر المملوكي مجلة دراسات تاريخية ع ١٣-١٤ دمشق، ١٩٨٣ ص٥٣-٥٤.